# اغنية حزينة لرجل كان حيّا

قصة بقلم حميد رشيد

صباح هذا اليوم خرج الطاهر الاخضر من حفرته . نظر الى الشمس المضيئة والى الجبال والبحر فأحس الغبطة تسري في مسامه. تنفس الاخضر الصعداء واستنشق الهواء العابق برائحة البراري ثم قال لنفسه : لا بد ان نومي كان طويلا على ما يبدو :

بحث في الحفرة عن بندقيته وسكينه فلم يلق لهما اثرا . قال : سأحاول اغتيال احد جنود الاعداء والاستيلاء على سلاحه .

في طريقه وهو ينحدر بين الادغال ، قطع غصنا غليظا والتقط حجرا صلدا من الصوّان شبيها بخنجر دسه تحت ثيابه ، وراح يتسرق حذرا بحثا عن الجنود .

احس الاخضر بالجوع فقطف بعض ثمار البلوط والمانجا البرية ، وصادف نبعة ماء فشرب حتى ارتوى : هذه الارض ما اخصبها . قال ذلك بحبور داخلي . ثم اردف : ايه . يا للنعمى التي سيعيش في كنفها الشعب بعد تحرير الوطن من هؤلاء الاوغاد .

حتى الظهر لم يلق الاخضر اثرا لعدو . كذلك لم يلق اثرا للثوار. كانت البراري والغابات تمتد تحت شمس ساطعة ، يربن عليها صمت لا عهد للاخضر به :

ولكن اين هم ؟

خمن بانهم ربما انسحبوا الى مكان آخر خلال فترة نومه ، وحاول ان يتذكر مواقع الثوار حيث ينبغي عليه ان يتوجه الان ، غير ان ذاكرته لم تسعفه .

ان ستارا من الظلمة الحالكة يحجب عنه ما قبل لحظة سقوطه اثر ذلك الدويّ والبريق الخاطف الذي صعقه وهو يعبث بجهاز اللاسلكي الذي غنمه من الاعداء . وهو بجاهد لتذكر الماضي ، لمح قطيعا من المواشي يرعى في السفوح . كان الراعي يجلس مطمئنا فوق صخرة ، واذ اقترب منه دهش لان الراعي لم يكن يحمل بندقية . كان الراعي يدندن اغنية شعبية عامرة بالحب والحزن .

في السفوح المجاورة كان الحطابون يقطعون الاشجار والاغصان . هم ايضا بلا بنادق . كانوا يتحدثون لغة الوطن بفرح ريفي .

سأل الاخضر راعي الغنم عن اسم الجبال وهذه البلاد ، فابتسم الراعي وهو يخبره وسأله :من اي البلاد جاء الاخ ؟

قال الاخضر : غريب . تهت في الجبال ولم اعد اعرف الطريق . هل المدينة بعيدة ؟

ـ لا . انها امامك رمية مقلاع .

عند الغروب لاحت المدينة . واذ دخلها لم ير جنودا ولا متاريس. كانت حركة وضوضاء السيارات والبشر على اشدها ، وعلى الارصفة ازدحم البشر وعربات البيع .

على وجوه الناس لمح كآبة وضيقا مبهمين ، وخشي ان يهزأوا منه ان سأل عن السبب ، فاكتفى بفكرة ان الاصيل ربما كان محزنا للناس جميعا .

رغب الاخضر بلفافة تبغ فطلب من احد المارة سيكارة ، غير ان الرجل نظر اليه بازدراء وحقد : ألست مسلما ؟

ـ مسلم والحمدلله .

ـ المسلم لا يفطر في رمضان !

تابع الاخضر طريقه . وهو يقطع الشارع رأى رجلا مسنا وفتى مشتبكين في معركة . كان كل منهما يضرب الاخر بوحشية بينما الناس يتفرجون بلا مبالاة ، واذ حاول الاخضر الاقتراب لتفريقهما، اخذه رجل من كتفه وصاح به : دعهما . هل تشترك معنا في رهان من يصرع الاخر ؟

وسأل : ولكن لماذا يقتتلان ؟

قال الذي جذبه ضاحكا : اب وابنه غلبهما جوع رمضان .

كانت المعركة قد احتدمت ، ومن العيون المراقبة شعت نيران الهياج . وسقط الاب اذ ارتطم بحافة الرصيف فانقض الابن على صدره . ورفع سكينه وغرسها بعنف تحت خاصرته اليسرى ثم ضغط بكل قوته فانبثق الدم ، وبدأت حركات الاب تتخامد بينما تحلق المتراهنون يتقاضون الرهان .

شعر الاخضر بالغم . بصعوبة تابع طريقه وسط الزحمة . كان خلوّ المدينة من الاعداء الذين كانوا يزرعون الرعب والفزع في المدينة ، يدهشه .

انعطف في شارع فرعي بعيدا عن الزحمة . فسمع صوت صفارة انذار . كان الناس يهرعون والشوارع تخلو . قال الإخضر في نفسه: لا بد ان الاعداء قادمون هذه المرة . تحسس خنجره الحجري فاطمان لوجوده . عدا نحو مدخل احدى العمارات المطلة على الشارع ، ولطا هناك . كان قلبه يدق بعنف . لم ينتظر طويلا . بعد لحظات تدفق سيل البشر فامتلأت الشوارع بهم . كانوا يدخنون وقد غادرتهم الكآبةوضيق الاصيل ، وهذه المرة لم يظهر اي اثر للاعداء .

خرج من مكمنه ، وراح يتفرج على واجهات المخازن الممتدة على طول الشارع لم يكن يفهم شيئا مما يدور حوله : عالم غريب .

قرأ اللافتات ورأى الثياب الجميلة المعروضة والخضار والسيارات والنساء الجميلات وهن يطلن الوقوف امام الحوانيت ، ولكنه لم ير اثرا لعدو او ثائر وتساءل بدهشة لا حدود لها : ولكن اين الاعداء والثوار يا اخضر ؟

امام الساحة الكبيرة وعلى جانبيها تمتد المقاهي . بين كل مقهى ومقهى ، مقهى . هناك يستلقي الرجال وحيدين او متحلقين يدخنون ويثرثرون ويحتسون القهوة . وفي وسط الساحة شاهد الاخضرجموعا حول رجل اعتلى منصدة .. كان الرجل يرتدي ثيابا تشبه ثياب الحواة والسحرة ، وقد طوقه عدد لا يحصى من تجار المدينة ببضائعهم المتنوعة . كان الرجل ينادي رافعا بيديه ما يعطي من بضائع التجار.

على مقعد حجري جلس الاخضر يراقب المزاد . كان المساء يهبط على المدينة حاملا معه صوت أغنية حزينة سمعها الاخضر تأتيه من مكان بعيد . وعبر به رجل فقير حاف في عينيه ذل قديم . توقف ومد يده طالبا حسنة . تملاه الاخضر مدهوشا . كان الشحاذ فتى قويا ، لكن عينيه كانتا تمطران كآبة . بدأ صوت الاغنية يعلو . قال الاخضر بهمس داخلي : يا لبلادي الحزينة .

السيارات تعبر سريعة . فتيات وفتيان يقودون السيارات بهوس . فتاة قصيرة جسمها كالاسفنج ترتدي بنطالا قصيرا ضيقا ، تدخل المقهى تقبل فتى بسرعة خاطفة ثم تثابطه . بمتطيان دراجة نارية ويعبران كالريح .

صوت الرجل الواقف وسط الجموع يرتفع . في يده ثوب

نسائي للبحر : مايوه آخر موديل . واحد ... واحد . مايوه ب. ب. بمائتي دينار . من يزيد . مايوه من الدمقس المطعم بالبروكار خاص بحوريات البحر ... اثنان .. اثنان .

صوت يرتفع : ثلاثمائة .

ثلاثمائة من يزيد ... اثنان . مايوه ترتديه الهة الجنس في العصر الحديث .

صوت يرتفع : خمسمئة .

أونو ... دوّي ... من يزيد . تري . ويقذف بثياب البحر باتجاه رجل مسنّ .

كان صوت الاغنية الحزينة ينساب وحيدا في فضاء الساحة . يدخل أعماق الاخضر ثم ينتشر كهذا المساء فوق المدينة .

عبر قرب الاخضر رجل يرقص ويضحك . كان يقوم بحركات هستيرية . عندما حاذاه تفرس فيه وراح يلقي كلمات غير مترابطة : بعد حين ستسمع ... ها ها ... الموتى مرتاحون . كلهم يسخرون مني . خذوا يا كلاب .

كان الرجل يرمي بحفنة نقود باتجاه المزاد : مدينة فحبة .. ها ها ... قوادها هؤلاء .. لا هي أرادت ذلك ولا أنا . أقول لك الحق . كانوا أقوياء . أقوى من النار صدقني . من أجل هذا أشعلوا النار . أنظر .. أنظر بعيدا هل ترى النيران ... ها ها .. الابنية والمخازن وأصوات المزاد حجبت الجبال والنيران . سبوها ثم ناموا معها . هكذا ورثوها . كانت بحاجة الى المال والرقص والموسيقى واللذة . الناس جميعا بحاجة الى ذلك . آه لو رأيتهم يوم كانت نيرانهم موقدة . من أقصى الشرق الى أقصى الغرب كان الناس يسيرون نحو نيرانهم ... ها ها .. يوم كانت البنادق كانوا كالنمور .. هكذا كانوا يثبون ويطعنون .

ووثب الرجل نحو شجرة وبوحشية راح يطعن الجذع بقبضته حتى تدمت . كان في عينيه انحرار ولمعان موحش كئيب لا يوصف . وتابع : كانوا كصقور الجبال . هكذا كانوا يطعنون الاعداء ... هي .. هي . لا لم يرتاحوا . انهم يطعنون بعضهم بعضا . الالم والغضب ياكل نفسه . عاد الناس غرباء بعد أن انطفأت نيران الجبل ، لكن الروح تهيم مشتعلة هناك وهنا فوق المدينة ترى وتبكي . ها .. ها . تبكي . الانسان وحيد . الروح وحيدة ومقهورة في هذا العالم . أقول لك بعد حين ماذا ترى . ملعونون حتى آخر الدهر . مدينة تحتاج حريقا . هل لديك عود ثقاب ؟ اعطني . اعطني . بعد حين سيبيعون قمصان الشهداء . ها .. ها . هيا انهض معي لنحرق هذه المدينة القحبة .

وبدا الرجل يخرج من صدره بعض الاوراق . كوّمها قرب جذع الشجرة وراح يحرقها . وصاح أطفال مروا به : حريق ... حريق . مجنون .

وجاء شرطي . امسك بالرجل بعد ان أطفا النار . قيده وسحبه وراءه ككلب .

كالالم سرى صوت الاغنية . كان الافق داميا في لون النيران. أحس الاخضر بحزن عميق يخرج من المساء والشجر وفضاء المدينة . ومرت به امرأة نصف محجبة عيناها مكتحلتان فيهما بريق دعوة وجوع وجشي ، واذ غمزت الاخضر أحس بخفقان غريب ورعشة . رنا اليها . كانت تفنج بكفل لاحم فاسق مسترقة النظر والخطو آملة أن يتبعها .

كان بعض التجار الذين لم يحضروا المزاد ، يتوافدون الى الساحة ومعهم أمتعة وبضائع قديمة . ورفع المنادي صوته منبها الى المفاجأة التي ستدهش الجميع . وخيم صمت تخلله الصدى الحزين للاغنية التي ارتفعت الآن .

تقدم تاجر حاملا صندوقا مغطى بالقطيفة والمخمل ، وضعه أمام المنادي وهمس في أذنه بعض الكلمات ، ثم تراجع .

قال المنادي : انتبهوا .. انتبهوا . وصلت المفاجأة . ورفع الصندوق المخملي فوق الرؤوس ، وراح يديره في جميع الاتجاهات .

صاح : في هذا الصندوق ما هو أغلى من الذهب والماس . واحد . الله واحد لا شريك له . داخل هذا الصندوق تحفة لا أبدع ولا أعظم . واحد . واحد ... سأفتح الصندوق لتروا المفاجأة .

عندما رفع الغطاء رأت الجموع قميصا ملطخا بالدم . أزاح القميص فظهرت بندقية وخنجر .

ـ ليس ما رأيتم بندقية وخنجرا عاديين ... واحد .. واحد .. قل هو الله أحد فرد صمد .. هذه بندقية وخنجر واحد من شهدائنا الابرار الذين قاتلوا الاعداء قتالا ضاريا حتى تم لوطننا التحرير .

يرفع البندقية : بهذه البندقية التي لم تخطىء جندل آلاف الاعداء ... واحد .. واحد .. مئتا دينار . من يزيد . هذه بندقية الشهيد وهذا قميصه الذي ما زال ملوثا بدمه الطاهر . رحمه الله كم كان باسلا . تذكار احتفظ به أحد أبناء وطننا . لكنه كوطني شريف رغب في عدم احتكار التذكار لنفسه ... ثلاثمائة . واحد .. واحد .

يرفع الخنجر : بهذا الخنجر طعن الفدائي الشهيد مئات الاعداء فأرداهم ... خنجر افريقي مرصع ... اربعمائة .. واحد .. اثنان.. بندقية وخنجر وقميص شهيد ملطخ بالدم بأربعمائة دينار ... واحد.. اثنان .. ذكرى الشهداء الابرار الذين ضحوا من أجلنا .. اربعمائة.. واحد .. اثنان .. من يزيد ؟

كان الاخضر يرى ويسمع فيعتصره ألم بلا حدود ، بينما كان صوت الاغنية يصاعد أكثر مذبوحا ناضجا بالمرارة . واقترب من الساحة رجل مهيب ذو كرش يمتطي حصانا أشهب جموحا . أوقفه قرب المزاد . كان الخنجر وفي رأسه القميص الملطخ مرتفعا في يد المنادي ، وفي اليد الاخرى البندقية .

صاح المنادي : اربعمائة وخمسون .. واحد .. اثنان . ذكرى الثورة . من يزيد ؟ ذكرى الدم ... واحد .. اثنان .

ورفع رجل المزاد الى أربعمائة وسبعين دينارا . قال الرجل ذو الحصان : خمسمائة دينار !

والتفت الناس نحو الصورت ، ورأوا الذي رسا المزاد عليه .

أعاد المنادي البندقية والخنجر الى الصندوق وصاح : واحد .. اثنان .. ثلاثة . ورمى بالصندوق الى الرجل الفارس .

بعد أن هذب الرجل حصانه ومضى بالصندوق ، سمع الاخضر رجلا بجواره يهمس : من كان ثمن حصانه نصف مليون يدفع ببندقية وخنجر عتيقين خمسمئة وهو مغمض العين .

ـ لقد تحرر الوطن اذن !

نهض الاخضر عن مقعده . تناول عصاه الموكوءة قربه . وضع منتصفها على فخذه وبضربة قوية ضغط عليها فانكسرت ، ثم نزع خنجره الحجري وغرسه بهدوء في جذع الشجرة .

عبر الشوارع خطا الاخضر خطوات سريعة . وفي سمعه راح صدى الاغنية ينمو كئيبا مفعما بالاسى . كان يحسه صادرا من الارض والشجر والحجارة في الطريق وهو يسير سمع صوت خطيب المسجد يثني على أمة محمد التي قهرت الغزاة والذميين بالايمان في جميع العصور .

ثم ما لبث صوته أن ارتفع : وان ينصركم الله فلا غالب لكم . وختم حديثه بالدعوة للدولة التي حققت العدل والمحبة للفقراء والمساكين والناس أجمعين .

في الطريق الجبلي بعد أن خلف الاخضر المدينة وراءه ، شعر برغبة حارقة في البكاء . واذ اقترب من قبره تذكر المجنون والاغنية الحزينة : الروح تتوه وحيدة في هذا العالم .

بهدوء نزل في الحفرة ثم تمدد على ظهره . تأمل السماء والنجوم المضيئة هناك ثم أغمض عينيه كطفل متعب ونام .

الجزائر — حيدر حيدر